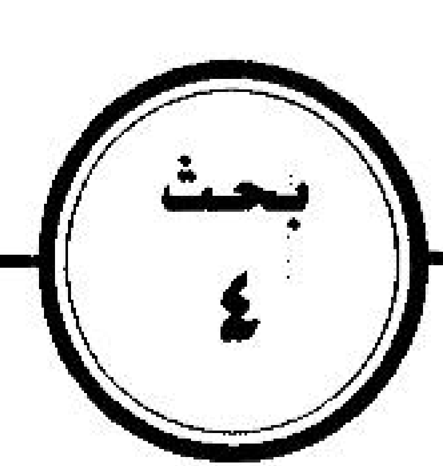
مجلة بحوث كلية الآداب
جامعة المنوفية



دور الوقف فى فداء الأسرى المسلمين فى بلاد الشام ومصر (٤٩١ - ٥٨٩هـ / ١٠٩٧ - ١١٩٣م)

إعـــداد
د/حسن عبد الوهاب حسين
أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

محكمـــة تصـــدر ها كليـــة الآداب بالمنوفيـــة

العدد الرابع والأربعون

يناير ٢٠٠١

يتناول هذا البحث دور الوقف في فك الأسرى المسلمين في بلاد الشام ومصر. وقبل تناول هذا الجانب تجدر الإشارة إلى أن الشريعة الإسلامية اهتمت بفداء الأسرى المسلمين خاصة وأن الأسير يفقد حريته من ناحية، وربما أُجبر على ترك دينه[1]. ويذكر أبو يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة في كتاب الخراج أن عمر بن الخطاب قال «لأن استنقذ رجلاً من المسلمين من أيدي الكفار أحب إليّ من جزيرة العرب»[2].

أما فداء الأسير المسلم فقد جعله عمر بن الخطاب من بيت مال المسلمين[3]. وفي خلال عصر الحروب الصليبية نجد أن الأسير نفسه كان يتحمل دفع فديته أو عشيرته، كما كان من الممكن أن يترك رهينة لحين وفائه بالفدية المطلوبة. وساهم في هذا الجانب والذي اعتبرته الشريعة الإسلامية أحد النواحي التي تعتبر صدقة جارية وأحد أوجه البر العديدة، تلك الأوقاف التي تركها أصحابها لفداء الأسرى المسلمين[4]. وعلى الرغم من أنه لم يصل إلينا وثيقة لهذا النوع من الوقف خلال الفترة الزمنية موضوع هذا البحث، إلا أن المصادر أوردت أسماء العديد من الشخصيات التي أوقفت

---

(١) وضّحت الآية رقم ١٠٦ من سورة النحل موقف المسلم الذي يجبره الكفار على ترك دينه. وذكر ابن كثير في شرحه لها أنه يجوز للمسلم المكره على الكفر أن يوالي إبقاءً لحياته، ويجوز أن يأبى. وهذا ما يسميه الفقهاء «بالتقية». انظر مختصر تفسير ابن كثير: اختصار وتحقيق محمد على الصابوني، بيروت ١٩٨١، المجلد الثاني، ص ٣٤٨ - ٣٤٩.

(٢) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم (١١٣ - ١٨٢ هـ)، كتاب الخراج، نشر محيي الدين الخطيب، القاهرة، ١٣٩٧ هـ، ص ٢١٢.

(٣) قال عمر بن الخطاب «كل أسير في أيدي المشركين ففكاكه من بيت مال المسلمين»، المصدر السابق.

(٤) أشار ابن عبد الظاهر في حوادث ٦٦٢ هـ/ ١٢٦٣ م في قضية أسر أحد المسلمين أن العلماء قالت «انقاذ أسراء المسلمين من أيدي الكفار من أفضل القربات والمثوبات»، وقال آخرون: «إذا أسروا مسلماً واحداً وجب على الإسلام (يقصد المسلمين) أن يواظبوا على قتالهم حتى يخصلوه أو يبيدوا الكفار». انظر الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٦، ص ٢٣٣.

مالاً أو أنواعاً أخرى من الوقف على فداء أسرى المسلمين. كما احتفظت لنا بوصف لبعض هذه الأوقاف وما كان يحدث عند وصول الأسرى إليها بعد إطلاق سراحهم، وكذلك ما كانت تدره من إيرادات أُنفقتْ على فداء هؤلاء الأسرى المسلمين[١].

ترجع أول إشارة فى المصادر العربية عن فداء أسرى المسلمين إلى ما أورده ابن العديم فى حوادث عام ٤٩١ هـ/ ١٠٩٧ - ١٠٩٨م أن الوزير أبو الفضل هبة الله بن عبد القاهر بن الموصول كان من جملة صدقاته التى يخرجها «افتكاك أسرى المسلمين»[٢] وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك أسرى بشكل واضح فى تلك الفترة،إلا أنها تدل على اهتمام مبكر بهذا الجانب فى الحروب الصليبية وهو موضوع فداء الأسرى[٣]. وفى خلال تقدم الصليبيون إلى بيت المقدس جنوباً وقع فى قبضتهم العديد من الأسرى المسلمين حيث استخدمهم الصليبيون أثناء حصار القدس فى بناء آلات الحصار وحمل الأخشاب[٤]. كذلك وردت بعض الإشارات عن محاولات لتنصير الأسرى المسلمين خلال أحداث هذه الحملة الصليبية الأولى[٥].

---

(١) عن تعريف الوقف وآراء أصحاب المذاهب الأربعة انظر:

H. Rabie, Some Financial Aspects of the Waqf System in Medieval Egypt, Egyptian Historical Review, vol. 18, 1971, pp. 4 - 8.

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب، ٣ أجزاء، تحقيق سامى الدهان، دمشق ١٩٥١، ص ١٣٨.

(٣) كانت الرها قد سقطت فى قبضة الصليبيين عام ١٠٩٧ م / ٤٩٠ هـ، أما الأسرى السلاجقة فى آسيا الصغرى وما حدث معهم فهو خارج نطاق البحث.

(٤) استغرقت رحلة الصليبيين من أنطاكية إلى بيت المقدس حوالى خمسة أشهر (يناير - يونيو ١٠٩٩م) مر خلالها الصليبيون على العديد من المدن الإسلامية، وعقدوا أول اتفاق بشأن الأسرى وذلك أمام عرقة. وأشارت بعض المصادر اللاتينية إلى أنه كان هناك ٥٠ أو ٦٠ أسيراً مسلماً أثناء حصار القدس. للمزيد انظر:

William of Tyre, A History of Deeds done beyond the Sea, 2 vols., trans. and annoted by E. Babcock A. C. Krey, (New York, 1943), I,VIII, pp. 361 - 62.

(٥) اختلفت آراء المصادر اللاتينية والعربية حول تنصير أحمد بن مروان قائد قلعة أنطاكية، -/-

ويفسر لنا المقريزى قلة الإشارات في المصادر فيما يتعلق بفداء الأسرى فى عهد الدولة الفاطمية موضحاً أنه لم يعرف عنها قط أنها فادت أسيراً بمال ولا بأسير مثله[1]. وعلى الرغم من المبالغة فى هذه الإشارة من جانب المقريزى، وذلك لأنه يذكر لنا فى اتعاظ الحنفا أن الأفضل وزير الآمر هو الذى كان «لا يطلق أسيراً أبداً»، ثم قال أن المأمون البطائحى (٤٧٨ - ٥١٩ هـ) قام باطلاق سراح أسير من الفرنج مقابل شاور بن مجير السعدى[2]. ويتضح لنا من هذه الرواية أن عشيرة الأسير هى التى تولت إطلاق سراحه، وليس الدولة الفاطمية، وقد ذكرت أنا كومنيا أيضاً رفض الفاطميين الحصول على أموال مقابل إطلاق حوالى ثلثمائة من الأسرى الفرنج، وأطلقهم الفاطميون «دون الحصول على بنس واحد»[3].

وعلى الرغم من أن السياسة الصليبية تجاه المدن الإسلامية اتجهت

=/=

راجع: حسن عبد الوهاب سليم: الرشوة فى المجتمع الصليبى فى بلاد الشام (١٠٩٥ - ١١٨٧م / ٤٨٨ - ٥٨٣ هـ) - مقالات وبحوث فى التاريخ الاجتماعى للحروب الصليبية، الإسكندرية ١٩٩٧، ص ١٠٢، ١٣٩.

(١) كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، ٢ جزء، بيروت بدون تاريخ، جـ ٢، ص ١٩٤. ويقدم المقريزى شرحاً وافياً عن معاملة الأسرى من الرجال والصبيان، وكذلك النساء والأطفال. وكيفية استخدامهم خاصة النساء اللائى كن يدربن على الصنائع، وتعليم الأطفال الكتابة والرماية، أما الشيوخ الذين لا ينتفع بهم فقد كان يتم ضرب أعناقهم.

(٢) اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا، جـ ١، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٣، جـ ٢ - ٣، تحقيق محمد حلمى أحمد، القاهرة ١٩٧١، جـ ٣، ص ٨٣. وكان الفرنج قد أسروا شاور وطالت مدة أسره وبذلت عشيرته جملة كبيرة من المال لإطلاقه، فطلب الفرنج أسيراً مقابله ولكن الأفضل رفض. ثم عندما قتل الأفضل فى رمضان ٥١٥ هـ، وتولى المأمون تمكنت عشيرة شاور من اقناعه باطلاق الأسير الفرنجي وذلك مقابل شاور وكان هذا ابتداء حديث شاور.

(٣) The Alexiad of Anna Comnena, trans. by E.R.A. Sewter, (Penguin Books) (London, 1982) XII, I, p. 370. وكذلك: فاطمة عبد اللطيف، معاملة المسلمين للأسرى الصليبيين فى بلاد الشام ومصر (١١٣٧ - ١٢٩١م/ ٥٣١ - ٦٩١هـ)، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، الإسكندرية، ١٩٩٧، ص ٥٦ - ٥٨.

بصفة عامة حتى عام ١١١٠م / ٥٠٤ هـ إلى إبادة معظم سكان المدن الشامية بعد سقوطها، إلا أن المصادر اللاتينية أشارت إلى بعض حالات فداء الأسرى المسلمين. فعلى سبيل المثال احتفظ بلدوين الأول (١١٠٠ – ١١١٨م) بأمير وقاضي قيسارية الشام وذلك طمعاً في الحصول على فدية مقابلهما .. وذكر ألبرت اكس أن أهالي عكا دفعوا ألف بيزنط مقابل قاضي المدينة، ولم يذكر شيئاً عن الأمير، كما أجبروا النساء الأسيرات على إدارة الطواحين الموجودة بالمدينة بعد سقوطها في مايو ١١٠١ م / رجب ٤٩٤ هـ[١].

أسهم التجار بدور هام في فداء الأسرى المسلمين حيث لعبوا دوراً هاماً في هذا الجانب، وذلك إما بترك أوقاف مالية لذلك، أو توسطهم في فك الأسرى المسلمين حيث لعبت التجارة دوراً هاماً في العلاقات بين المسلمين والصليبيين. فيذكر ابن القلانسي أنه في عام ٥٠٤ هـ/ ١١١٠م خرجت مجموعة من التجار الفاطميين من تينس ودمياط فأسرتهم مراكب الأفرنج. ولم تقم الدولة الفاطمية باطلاق سراحهم، بل قاموا هم بفداء أنفسهم بما بقي لهم من الذخائر في دمشق[٢]. كذلك وردت إشارات لدى ألبرت دكس وابن القلانسي عن تعرض قوافل للتجار المسلمين للنهب وأسر من بها وبلغ عدد الأسرى المسلمين ثلثمائة أسير[٣].

---

(١) Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana, R.H.C.-H. Occ., IV (Paris, 1879), pp. (264 - 713), p. 544; William of Tyre, op. cit., vol. I., X, XVI. cf. also: Richard, J., The Latin Kingdom of Jerusalem, trans. by J. Shriley, 2 vols. (Amsterdam, 1979), I., p. 132.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، تحقيق د. سهيل ذكار، دمشق ١٩٨٣، ص ٢٧٤؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، ١٠ أجزاء، بيروت، ١٩٨٧، جـ ٩، ص ١٤١.

(٣) Albert d'Aix, op. cit., p. 693; وكذلك ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٢٩١.

أما فى شمال بلاد الشام فقد لعب الأسرى دوراً هاماً فى التحالفات التى حدثت بين الصليبيين والمسلمين. فيذكر ابن الأثير أن بلدوين سيد الرها أطلق سراح مائة وستين أسيراً مسلماً من سواد حلب وكساهم وسيرهم، وذلك فى عام ٥٠٤ هـ/ ١١١٠م[١]. وهذه من الإشارات الهامة المبكرة عن كيفية معاملة الأسرى بعد إطلاق سراحهم خاصة تقديم الكسوة لهم. ثم عاود الصليبيون مهاجمة قافلة متجهة من حلب إلى دمشق وقاموا بأسر من بها ليقرروا عليهم مالاً وذلك فى ٥١١ هـ / ١١١٧م[٢].

أما فى حملة الامبراطور البيزنطى حنا كومنين (١١١٨ - ١١٤٣م) فقد لعب الأسرى دوراً هاماً فى أحداثها. ففى بداية أحداث الحملة وذلك فى عام ٥٣٢ هـ/ ١١٣٨م قام الصليبيون بأسر نحو خمسمائة من التجار والسفار من أهل حلب والذين كانوا فى أنطاكية[٣]. ويبدو أن ذلك كان بهدف إما عدم وصول أخبار الحملة عن طريق هؤلاء التجار أواستخدامهم كوسيلة للضغط على المسلمين. ومن بين ما ذكرته المصادر العربية أيضاً أن قاضى بزاعة ومعه نحو من أربعمائة من الأسرى تنصروا بعد أن حصلوا على أمان من البيزنطيين والصليبيين ولكنهم غدروا بهم[٤]. ولا ندرى هل لجأ الأسرى إلى ذلك هرباً من المعاملة السيئة التى تعرضوا لها وعملاً بالتقية، خاصة وأن سيف الدين سوار قد نجح فى تخليص أعداد كبيرة منهم من الأسر، وكان بعضاً منهم قد نقل إلى القسطنطينية وتم إطلاق سراحه بعد فترة وأُعطى

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ٩، ص ١٢٧.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، ص ١٨١.

(٣) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٤١٤، ابن العديم: المصدر السابق، ص ٢٦٤.

(٤) نفسه، وعن أحداث هذه الحملة:

John Kinnamos, Deeds of John and Manuel Commenus, trans. by Charles M. Brand, (New York, 1976), pp. 23 - 26; O city Byzantium, Annales of Niketas Choniates, trans. by J. Mogoulias, (Detroit, 1984), pp. 17 - 18.

نفقة توصله إلى بلده شيزر[١]. وهى أيضاً إشارة أخرى إلى معاملة الأسير بعد إطلاق سراحه واعطائه المال الذى يعينه إما على الوصول إلى بلده أو يجعله يبدأ حياته مرة أخرى بعد إطلاق سراحه.

ويقدم لنا أسامة بن منقذ صورة حية عن فداء الأسرى المسلمين حيث قام بنفسه بهذا الدور فى أثناء سفارته إلى الصليبيين، وأيضاً مستغلاً علاقة والده بالصليبيين. وحدد لنا أسعار فداء بعض هؤلاء الأسرى والتى تراوحت ما بين ألفى دينار لابن صاحب الطور وثلاثة وأربعين ديناراً لاثنين من الأسرى. كذلك وضّح لنا كيف كان يتعامل مع الصليبيين والذين بحوزتهم هؤلاء الأسرى كصفقة تجارية وبيعهم الأسرى جملة واحدة. وتعرضت أسرة أسامة للأسر أثناء سفرها من مصر إلى عكا وذلك على الرغم من حصولها على أمان من الملك بلدوين الثالث (١١٤٢ - ١١٦٢م). غير أن الصليبيين قاموا بكسر المركب التى تقلهم عند وصولها إلى عكا للإستيلاء على ما بها وكان ذلك من الوسائل المتبعة بين الجانبين. وأشار إلى عادة تفتيش الأسرى والاستيلاء على ما معهم فقد استولى الصليبيون على كل ما معهم ولم يعطوا لهم إلا خمسمائة دينار توصلهم إلى بلدهم وكانوا نحو خمسين فرداً[٢].

ومن بين الأسرى الذين أهتم بهم أسامة بن منقذ لإطلاق سراحهم كانت مجموعة من المغاربة تقدر بنحو أربعمائة[٣]. وتشير المصادر أيضاً إلى أن أحد المغاربة وهو أبو بكر محمد بن عبد الباقى المعروف بقاضى المارستان (ت ٥٣٥ هـ/ ١١٤٠ - ١١٤١م) أسر وحاولوا إجباره على التنصر بعد أن عذب ولكنه تمسك بدينه ورفض ذلك. ووقع فى خدمة أحد القسوس حيث ظل لمدة عام ونصف تعلم أثناءها الخط الرومى وتم إطلاق سراحه[٤].

---

(١) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، نشر فيليب حتى، برنستون، ١٩٣٠، ص ٩١ - ٩٢.

(٢) نفسه، ص ٣٤ - ٣٥.

(٣) نفسه، ص ٧٥، ٨١ - ٨٢.

(٤) سبط بن الجوزى: مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، جـ ٨، ق ١، ٢، حيدر آباد - الهند، -/-

ومن أبرز الشخصيات التى تولت فك الأسرى فى هذه الفترة معين الدين أنر صاحب دمشق (ت: ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م) فقد كان له العديد من أبواب البر المختلفة ومن بينها فك الأسرى. وأكد أسامة بن منقذ ذلك حيث دفع فى إحدى المرات مائة وعشرين ديناراً لإطلاق سراح بعض الأسرى. كما قام بذلك عز الدين أبى العساكر سلطان عم أسامة حيث دفع فى زوجة سابقة له خمسمائة دينار لإطلاق سراحها[١]. وكان أسامة قد تولى فك الأسرى بنفسه وذلك من خلال روايته.

ويبرز دور الشيخ نصر بن منصور بن الحسين بن أحمد أبو القاسم الحرانى (٤٨٤ – ٥٥٣ هـ) والذى كان قد أقام ببغداد وكثر ماله وصدقاته والتى كان من بينها ما أوقفه على فكاك الأسرى[٢]. كذلك يضاف إلى أعمال البر التى قام بها الوزير جمال الدين أبو جعفر محمد بن على بن أبى منصور الأصفهانى وزير صاحب الموصل حيث كان من أسخى الناس وأكثرهم بذلاً للمال خاصة فى مكة والمدينة. كما كان يقوم بشراء الأسرى حيث ينفق على ذلك عشرة آلاف دينار فى كل عام من بلاد الشام فقط، بخلاف الأماكن الأخرى[٣]. وعلى الرغم من أن المصادر لم توضح كيف كان يقوم بذلك، غير أن ابن الأثير يذكر أنه كان هناك ديوان لصدقاته وله شخص يتولاه[٤]. وعلى الأرجح أن التجار ساهموا بدور هام فى نقل هذه الأموال وإطلاق سراح هؤلاء الأسرى. فيذكر ابن جبير أن التاجرين نصر بن

-/-

١٩٥١، ١٩٥٢، ق ١، ص ١٧٨ – ١٧٩؛ أسامة بن منقذ: المصدر السابق، ص ١٧٨ – ١٧٩.

(١) أسامة بن منقذ: المصدر السابق، ص ٨١ – ٨٢.

(٢) سبط ابن الجوزى، جـ ٨، ق ١، ٢٣٠؛ ابن الأثير: الكامل، ٩، ص ٤٢٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ٩، ٤٧٠ – ٤٧٣؛ أبو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ ٢، القاهرة ١٢٨٧ – ١٢٨٨ هـ، جـ ١، ص ١٣٦ – ١٣٨.

(٤) ابن الأثير، الكامل، جـ ٩، ص ٤٧٣.

قوام وأبو الدر ياقوت كانا «يأخذان أموال ذوى الوصايا، ويقومان بإطلاق سراح الأسرى بعد دفع الأموال المطلوبة فيهم من الفرنج[1].

ومن بين الأهداف التى أعلنها نور الدين محمود عند حصاره لدمشق عام ٥٤٥ هـ/ ١١٥٠م، خلاص الأسرى المسلمين[2]. ويعطى لنا الرحالة ابن جبير صورة مفصلة عما قام به نور الدين فى فك أسرى المغاربة بصفة خاصة. فيذكر أنه نذر أن يفرق عشرين ألف دينار لإطلاق سراح أسرى مغاربة إذا شفاه الله من مرضه. وبالفعل بعد أن منّ الله عليه بالشفاء أرسل هذا المبلغ مع التاجرين نصر بن قوام وأبو الدر ياقوت فكان جملة من أحضروه أسرى من حماة فأرسل مبلغاً آخر لفك أسر مجموعة أخرى من المغاربة حتى يفى بنذره كاملاً[3]. وكان من بين من فك أسره نجم الدولة محمد مرشد بعد أن وهب أسامة ابن منقذ مقدماً من مقدمى الداوية لفدائه فاستخلص به أخاه من الأسر[4]. وأجمعت المصادر العربية على تركه أوقافاً على فكاك الأسرى ولكنها لم تحدد لنا هذه الأوقاف لكى نتتبع دورها بعد وفاته فى عام ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤م[5]. وقد استغل نور الدين محمود مبلغ يقدر بتسعمائة ألف دينار وهو ما حصل عليه مقابل فداء أسرى الفرنج فى معركة حارم ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤م، وأسير صليبى آخر فى بناء الأوقاف على أعمال البر المختلفة. ومما ينسب إلى نور الدين محمود ترتيبه فى حارم مشعلين يوقدان أثناء الليل وذلك لكى يهتدى بهما من يهرب من الأسرى المسلمين

---

(١) رحلة ابن جبير، تحقيق د/ حسين نصار، القاهرة، ١٩٩٢.

(٢) ابن القلانسى، الذيل، ص ٤٨٥.

(٣) مرض نور الدين مرتين الأولى ٥٥٢ هـ، والثانية ٥٥٤ هـ وذلك فى حلب ودمشق. راجع: ابن القلانسى، ص ٥٣٣؛ أبو شامة، الروضتين، جـ ١، ص ١١٠، ١١٢ - ١٢٣.

(٤) أبو شامة، الروضتين، ١/ ١١٣.

(٥) سبط ابن الجوزى، مرآة، ٨، ٢٩٩؛ البندارى، سنا البرق الشامى، تحقيق د. فتحية النبراوى، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٢٦.

من بلاد الفرنج. وعبثاً حاول الفرنج دفع عشرين ألف دينار لكى يقوم بإزالتهما ولكنه رفض ذلك(١).

استغل التجار علاقتهم بالملوك الصليبيين فى فك الأسرى المسلمين وذلك لترددهم على المدن الصليبية الساحلية وخاصة عكا وصور والتى كان يحمل إليها الأسرى المسلمين. يضاف إلى ذلك أمانة بعض هؤلاء التجار مكنهم من القيام بهذا الدور. ومثال ذلك ما قام به التاجران نصر وأبو الدر. كما دفعا من أموالهم فى فداء هؤلاء الأسرى. بل أن أبا الدر كان يوفر العمل للأسير ضمن صبيانه كما ذكر ابن جبير عن قصة الأسير الذى أطلق سراحه(٢). وهناك مثال آخر لتاجر مغربى ظل فى الشرق من عام ٥٧١ حتى ٥٩٦هـ وكان من بين أعماله أو صدقاته «مفاداة الأسرى»(٣). وأسهم أيضاً مسلمو صقلية فى فداء الأسرى ومنهم أبو القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر الذى وصفه ابن جبير بأن «له صنائع ومنها افتكاك الأسرى»(٤). وكان الاهتمام موجهاً بصفة خاصة لفداء الأطفال والنساء وذلك خوفاً عليهم من التنصير.

ومن أهم الأوقاف على فكاك الأسرى فى مصر ما أوقفه صلاح الدين الأيوبى على أسرى بلبيس بصفة خاصة. فقد تعرضت هذه المدينة الهامة لحملات عديدة أثناء الصراع بين نور الدين محمود وعمورى ملك بيت المقدس وخاصة عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٨م. وعندما ملك صلاح الدين مصر

---

(١) اختلف الفقهاء حول أسرى حارم فمنهم من أشار بالفداء منهم من أشار بقتلهم، ولكن نور الدين قبل الفداء وانظر: سبط ابن الجوزى، مرآة، ٢٤٧ – ٢٤٨، ٣١١؛ أبو شامة: الروضتين، ١، ٩. وكذلك ابن شداد: الاعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق د. سامى الدهان، دمشق ١٩٦١، ص ١٤.

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٣٩١ – ٣٩٢.

(٣) المقرى: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، بيروت ١٩٨٨، جـ ٢، ص ٢٣٩، ٢٤٠.

(٤) الرحلة، ص ٤٣٥، ٤٣٨.

ترك خراج بلبيس على كثرته على فكاك أسرى بلبيس وسامحهم على ذلك إلى آخر أيامه[1].

ويثور هنا تساؤل هام بقصر خراج بلبيس على فك أسراها، فهل كان هناك تسجيل لأسماء الأسرى أو بمعنى آخر وجد ديوان لذلك؟ ويجيب النويرى الكندى (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣٢م) على هذا التساؤل عندما أورد لنا نصاً هاماً عن ما يمكن أن نسميه بديوان الأسرى. وكانت مهمة صاحبه تسجيل أسماء الأسرى ومعرفة مللهم وأجناسهم، وتسجيل المضافين إليهم، ومن يفرج عنه إما بمقتضى المراسيم، ويحدد تاريخه واسم من حضر على يده ومن تسلمه، وفى حالة دخوله فى الإسلام فيذكر بياناته أيضاً، كما يوضح الإفراج عن الأسير وذلك إما بالفداء أو الهرب أو الموت[2]. ويؤيد ما ورد لدى النويرى اشارات عامة فى المصادر المعاصرة، فقد ذكر العماد الكاتب أنه كان يجلس بجوار السلطان ويسجل الأسرى بقلمه، وخاصة المعروفين منهم[3]. كما كان يتم عمل حصر بأسماء الأسرى وتسليمهم إلى والى قلعة دمشق، والذى يقوم بدوره بأخذ خط وزير صلاح الدين أو نائبه فى دمشق على تسلم هؤلاء الأسرى[4]. أما غير المعروفين من الأسرى فكان يتم عمل حصر لأعدادهم فقط[5]. أما الأسرى المسلمين فمما لا شك فيه أن المسلمين كان لديهم حصراً بأسماء أسراهم المعروفين، وذلك لكى يتم فداءهم عندما تحين الفرصة المناسبة وذلك إما بالمال أو بأسرى من الفرنج. ويدل

---

(١) أبو شامة، الروضتين، ١، ١٧٠؛ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، م ٤، جـ ١، تحقيق محمد حسن الشماع، البصرة، ١٩٦٧، ص ٢٣، وكذلك:

H. Rabie, Some Financial Aspects of the Waqf System, p. 12.

(٢) نهاية الإرب فى فنون الأدب، السفر الثامن، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، مصر، بدون تاريخ، ص ٢٨٢ – ٢٨٣.

(٣) البرق الشامى، تحقيق مصطفى الحيارى، جـ ٣، عمان ١٩٨٧، ص ١٦٦.

(٤) سبط ابن الجوزى، مرآة، جـ ٨، ص ٣٩٣ – ٣٩٤.

(٥) العماد، البرق، ٣، ص ١٦٦.

على ذلك أن بعض المعـروفين من الأمـراء والقـادة المسلمين ثم إطلاق سراحهم وذلك بعد سنة أو أكثر كما سنرى فيما بعد[1].

خـاض صـلاح الدين الأيوبى العديـد من الحروب ضـد الصليبيين منذ إعلانه لقيام الدولة الأيوبية فى مصر ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م وحتى صلح الرملة الذى أنهى أحداث الحملة الصليبية الثالثة وذلك فى شعبان ٥٨٨ هـ/ سبتمبر ١١٩٢م. ولن ندخل هنا فى تفـاصـيل هذه الحـمـلات والتـى لا شك أن لهـا اتصال مباشر بموضوع البحث. فقد ترتب عليها وقوع الكثير من المسلمين أسرى فى قبضة الصليبيين. ومن بين هؤلاء بعض القادة المعروفين ورجال الدين والتجار وغيرهم. وقد تعددت الوسائل التى فك بها صلاح الدين أسر هؤلاء الأسرى ومن بينها:

أولاً: المفـاداة بـالمال فـقـد تراوحت الفـدية مـا بين ٧٠ ألف دينار أو ٦٠ ألف دينار دفعهـا مقابل الفقيه ضياء الدين عيسى، و ٨٠٠ دينار لنقيب الجاندارية الناصرية[2].

ثانياً: المفاداة بأسرى مقابلهم، وكثير من الحـالات كان يتم فيها دفع المال وعـدد من الأسـرى المعـروفين. مـثل الفـقـيـه عـيـسى «وجـمـاعـة من الأسرى»، وشاهنشاه ابن المظفر تقى الدين الذى تم أسره بعد خدعة وتم بيـعـه للداوية وظل فـى الأسـر سـبع سنوات إلى أن تم دفـع مـال وأسرى من الداوية مقابله[3]. وهى من الحـالات القليلة بالنسبة للداوية التى يتم فيها الفداء لأنهم «لم تجر لهما عادة بالمفاداة»[4].

---

(١) وردت أول إشارة عن أسير استمر أسره لمدة سبع سنوات لدى ابن الأثير، الكامل، جـ ٩، ص ١٣٩.

(٢) ذكر بعض المؤرخين ٦٠ ألف وآخرون ٧٠ ألف دينار، انظر: ابن الأثير، الكامل، ١٠، ٨٦؛ العماد، البرق، جـ ٣، ص ٤١، أما نقيب الجاندارية الناصرية فهو عبد القاهر الحلبى؛ أبو شامة، الروضتين، ٢/ ١٨٧.

(٣) العماد، البرق، جـ ٣، ٣٨، ٣٩، ٤١؛ أبو شامة، الروضتين، ١، ٢٧٣.

(٤) أبو شامة، الروضتين، ٢، ٧٩ وأضاف أيضاً أن الداوية والاسبتارية لا يخدمان فى الأسر وهى من الأسباب التى دفعت صلاح الدين لقتلهم فى الأسر.

ثالثاً: عن طريق الهدن. يقول أبو شامة «وهذا دأبه فى كل بلد يفتحه وملك يربحه أنه يبدأ بالأسارى، وبلغ جملة من أطلقه من سراح الأسرى المسلمين بعد حطين من المعاقل والمدن حوالى عشرين ألف أسير[١]. ومن ذلك ما عقده صلاح الدين فى عام ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤م مع ريموند الثالث صاحب طرابلس لإطلاق سراح ٥٠٠ أو ١٠٠٠ أسير مسلم[٢]. كما عقد صلاح الدين اتفاقاً مع روبين الثالث ملك أرمينية فى عام ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠م وافق فيه الأخير على شراء خمسمائة من الأسرى المسلمين من بلاد الفرنج وعتقهم[٣].

رابعاً: نجاح بعض الأسرى فى الهروب من الأسر. فيذكر أسامة ابن منقذ قصة الأسير الذى رأى النبى (ﷺ) فى أثناء نومه فأصبح وكسر قيده وهرب[٤]. وكذلك قصة الكردى الذى تدلى بحبل من أسره وهرب بقيده إلى تل العياضية عند عكا وكسر قيده وعاد إلى معسكر المسلمين[٥].

ولا شك أن فداء هؤلاء الأسرى قد كلف صلاح الدين أموالاً ضخمة والذى لم يكن يدخر وسعاً فى ذلك. ويروى العادل الأيوبى أن متولى خزانة صلاح الدين تسلم منه فى يوم سبعين ألف دينار أنفقها جميعاً فى ذلك اليوم على من أطلق سراحهم ثم طلب فى اليوم التالى ثلاثين ألفاً لنفس الغرض[٦]. وقد تحمل بعض الأسرى المبالغ التى دفعوها لفك أسرهم. ومن

---

(١) الروضتين، ٢، ٨٩.

(٢) البندارى، سنا البرق، ص ٨٣ – ٨٤.

(٣) ابن شداد، سيرة صلاح الدين الأيوبى، تحقيق سعد كريم الفقى، الإسكندرية (بدون تاريخ)، ص ٤٣، أما تحديد عدد الأسرى وعتقهم فقد ذكره أبو شامة نقلاً عن ابن أبى طى، الروضتين، ٢/ ١٦.

(٤) الاعتبار، ص ٩٤.

(٥) أبو شامة، الروضتين، ٢، ص ١٩٣ – ١٩٤.

(٦) أبو شامة، الروضتين، ٢، ١١٥.

بين هؤلاء سيف الدين على بن أحمد ملك الهكارية والذى وقع فى الأسر بعد سقوط عكا عام ٥٨٧ هـ/ ١١٩٢م، ومعه بهاء الدين قراقوش وبعض المشهورين من القادة. وفدى الأول نفسه بخمسين ألف دينار دفع منها عشرين ألف وترك رهائن بالباقى. أما بهاء الدين فقد دفع ثمانين ألف وترك رهائن لحين يأتى ببقية المبلغ المطلوب. وكان قد ذهب لمقابلة صلاح الدين بعد إطلاق سراحه وأستأذنه فى الذهاب لدمشق لكى يأتى بالمبلغ وأقام بها حتى خلص أصحابه من الأسر. وبعدها توجه إلى مصر «وقد ضاق نفسه ببذل ماله وخرج من ثروته ودخل فى اقلاله»(١). وعوض صلاح الدين بعضاً من هؤلاء الأسرى عما دفعوه، فقد منح نابلس لابن المشطوب إقطاعاً له، كما أعطى الفقيه عيسى جميع ما كان فى عكا للداوية من إقطاع وضياع وغير ذلك(٢).

ومن أبرز الشخصيات التى تركت أوقافاً لفداء الأسرى المسلمين كان القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى (ت ٥٩٦ هـ) والذى كان له مكانة خاصة لدى صلاح الدين الأيوبى. وقد ذكرت المصادر التاريخية المعاصرة ما تركه فى هذا الجانب – فيقول ابن الأثير «وله وقوف كثيرة على الصدقة وفك الأسارى»(٣) وينقل أبو شامة عن العماد الكاتب أن أوقافه على سبيل الخير كثيرة «لا سيما أوقافه لفكاك أسرى المسلمين»(٤) وعلى الرغم من أنه لم تصلنا وثيقة الوقف الخاصة بدار التمر والتى أوقف ريعها على فداء الأسرى المسلمين، إلا أن ابن عبد الظاهر ترك لنا وصفاً مفصلاً عنها فى كتابه «الدر النظيم فى أوصاف القاضى الفاضل عبد الرحيم»(٥) وقد نقل عنه المقريزى

(١) سبط ابن الجوزى، مرآة، ٨، ص ٤٢٠؛ ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢٢٨؛ أبو شامة، الروضتين، ٢، ص ٢٠٧ – ٢٠٨.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ١٠، ص ١٤٩.
(٣) المصدر السابق، ١٠، ٢٦٨.
(٤) الروضتين، ٢، ٢٤١.
(٥) لم يصل إلينا هذا الكتاب، وذكره المقريزى فى الخطط، ٢، ص ٧٨ – ٧٩.

المقريزى فى خططه وصفاً لهذه الدار حيث اشتملت على مخازن ومنازل علوية وحوانيت بلغت ١٢ حانوتاً، و٥٨ مخزناً وست قاعات وشون و ٧٥ منزلاً. وبلغ جملة إيرادها عام ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠م فى كل شهر ١١٣٦ درهم نقرة[١]. وكان القاضى الفاضل قد وقف هذه الدار عندما عزم على الحج ومر بها وقال «اللهم إنك تعلم أن هذا الخان ليس شىء أحب إلىّ منه فاشهد أنى وقفته على فكاك الأسرى من بلاد الفرنج»[٢].

كذلك حرص خدم صلاح الدين على المساهمة فى هذا الجانب من أعمال البر. ومن بينهم مسرور الذى أختص به صلاح الدين وتقدم عنده كثيراً. وترك وقفاً ليكون فى فداء الأسرى والفقراء بالحرمين وهو ما يعرف بخان مسرور أو الفندق الكبير. وقد وصفه ابن عبد الظاهر بقوله أنه من أجَل الفنادق وبلغ عدد بيوته ٩٩ وفيه مسجد تقام فيه الجمع والصلوات الخمس. كما كان ينزله أعيان الشام بتجاراتهم[٣]. ولا شك أن إيراداته كانت ضخمة على هذا النحو مما كان لها دور هام فى فكاك الأسرى المسلمين فى أواخر عهد الدولة الأيوبية وأيضاً فى عهد دولة المماليك.

ومن بين من ترك وقفاً مالياً لفكاك الأسرى، كان قيماز النجمى نائب

(١) المصدر السابق. وعن تطور الدينار والدرهم قبل الإسلام وبعده انظر: أبو الحسن على ابن يوسف الحكيم: الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة ١٩٨٦، ص ٦٣ – ٦٨؛ إبراهيم حركات، النشاط الاقتصادى الإسلامى فى العصر الوسيط، الدار البيضاء، ١٩٩٦، ص ٢٨١ – ٢٨٥.

(٢) حج القاضى الفاضل مرتين وذلك فى عامى ٥٧٤ و ٥٧٥ هـ. ومن خلال الرواية السابقة يتضح أن الوقف كان فى عام ٥٧٤ هـ. انظر: أبو شامة، الروضتين، جـ ٢، ٧، ١٥.

(٣) ذكر ابن عبد الظاهر أنه من خدام القصر زمن صلاح الدين، وبطل الخدمة فى الأيام الكاملية، وكان قد أوقف الفندق الكبير على ابنه ريحان، ثم على الأسرى والفقراء بالحرمين من بعده. انظر: الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٩٦، ص ٢٤ – ٢٥، أما عن موقعه اليوم انظر: أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ ٤، ص ٤٣ (ج) ٣.

سيف الدين غازى ابن مودود صاحب الموصل. ويذكر ابن خلكان فى ترجمته أن له أوقافاً كثيرة. ويشير أبو شامة فى الذيل أنه ترك عشرين ألف دينار برسم فكاك الأسرى[1]. أما أبو سعيد كوكبورى بن أبى الحسن على بكتكين والملقب بالملك المعظم مظفر الدين صاحب أربل فيعد أكثر من أوقف أموالاً على فكاك الأسرى حتى يقال أن جملة من خلص من الأسر على يديه بلغ ستين ألف رجل وامرأة. وكان يرسل كل عام أمنائه ومعهم الأموال إلى بلاد الشام لإطلاق سراح الأسرى من بلاد الفرنج. وعندما لا يجد المال يقوم ببيع جواهره فى دمشق وفك هؤلاء الأسرى[2].

ونختتم هذا البحث بالإشارة إلى الدور الهام الذى أسهم به صلاح الدين والأوقاف فى معالجة بعض الجوانب النفسية والمادية للأسير بعد إطلاق سراحه. فقد حرص صلاح الدين على مواساة الأسرى والفرح بهم عند لقاءهم، بل كان يأمر بفك قيودهم وتقييد الأسرى الفرنج بها بدلاً منهم ليعوضهم عن محنة الأسر. كما كان يقربهم منه، ويفصل لنا ابن شداد لقائه بابن المشطوب بعد إطلاق سراحه «وأعتنقه وسر به سروراً عظيماً وأخلى المكان وتحدث معه»[3] أما عامة الأسرى فقد «جمع الأسراء المطلقين وكانوا ألوفاً من المسلمين فكساهم وأساهم وواساهم وأذهب أساهم»[4].

---

(١) يعرف بأبى منصور قايماز بن عبد الله الزينى الملقب مجاهد الدين (ت ٥٩٥ هـ): أبو شامة، الروضتين، ٢، ص ٢٣٩؛ الذيل، ص ١١١ – ١١٢؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق احسان عباس، بيروت ١٩٦٩ – ١٩٧٢، جـ ٤، ص ٨٢ – ٨٤.

(٢) سبط بن الجوزى، مرآة، جـ ٨، ق ٢، ص ٦٨٣.

(٣) ابن شداد، المصدر السابق، ص ١٩١؛ وتركت القيود أثراً نفسياً هاماً حتى أن المكناسى صاحب رحلة الإكسير فى فكاك الأسير، ذكر أن النصارى فى أسبانيا تركوا القيود التى كان المسلمون يقيدونهم بها فى أرجلهم على جدران كنيسة طليطلة وذلك بعد أن استردوها منهم فى عام ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥م وذلك تذكيراً لهم بمحنة الأسر، انظر: تحقيق محمد الفاسى، الرباط، ١٩٦٥، ص ١٤٩.

(٤) أبو شامة، الروضتين، ٢، ١١٥.

أما الجوانب المادية فكان أول شيء هو كسوة الأسير، واعطائه نفقة توصله إلى أهله مهما كان عدد هؤلاء الأسرى. كما عوض القادة والأمراء باقطاعات ومنح عديدة. وساهم وقف الأسرى بدور هام في هذه الجوانب السابقة فنجد أن الأسرى كان يؤتى بهم إلى دار التمر وبعد أن يلبسوا ملابسهم الممنوحة لهم من ريع الوقف يدعون للقاضي عبد الرحيم(١). كذلك عند عودة الأسرى إلى أربل بعد إطلاق سراحهم كانوا يأتون إلى قرية يقال لها بيت النار بعد أن حصلوا على ما يحتاجون إليه من أموال ويظلون بها حتى يأتي غيرهم(٢).

ومن خلال العرض السابق يتضح لنا الدور الذى أسهم به الوقف فى فك الأسرى المسلمين منذ بداية الحروب الصليبية وحتى نهاية عصر صلاح الدين الأيوبى. وقد كان لديوان الأحباس دور هام فى العصر الأيوبى فى هذا الجانب من جوانب البر وهو فكاك الأسرى وذلك من خلال تلك الأحباس أو الأوقاف التى تركها أصحابها وقفاً على هذا الجانب. وقد اقتصرت إدارة هذا الديوان على أعيان كتاب المسلمين من الشهود المعدّلين بحكم أنها معاملة دينية(٣). أما الفترة المتبقية من العصر الأيوبى فلا توجد اشارات فى المصادر عن أوقاف خاصة بالأسرى واستمرت الأوقاف السابقة فى أداء عملها، كما وردت العديد من الاشارات عن عقد هدن بين الأيوبيين والصليبيين كان الأسرى يمثلون جانباً هاماً من بنودها. وفى العصر المملوكى سنرى وثائق خاصة بفكاك الأسرى وهو موضوع دراسة مستقلة إن شاء الله.

---

(١) المقريزى، الخطط، ٢، ص ٧٨ – ٧٩.

(٢) سبط ابن الجوزى، مرآة، ٨، ق ٢، ص ٦٨٢؛ ويذكر ياقوت الحموى أن بيت النار قرية كبيرة من قرى أربل من جهة الموصل، بينهما وبين أربل ثمانية أميال. معجم البلدان، جـ ١، ص ٥٣٢ – ٥٣٣.

(٣) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، م ٤، جـ ١، ص ١٤٧ – ١٤٨؛ المقريزى، الخطط، ٢، ٢٩٥؛ وكذلك حسنين ربيع، النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين، القاهرة ١٩٦٤، ص ٤٧ – ٤٨، ٧٥ – ٧٨. وعن الديوان ونشأته انظر: حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ٣ أجزاء، القاهرة، بدون تاريخ، جـ ٢، ص ٥٣٧ – ٥٤٥.

ملحق رقم (١)

بين بأسماء الشخصيات التي تركت أوقافاً لفداء الأسرى المسلمين ونوع الوقف

الاســـــم	نوع الوقف	تاريخه	المصـــدر
الوزير أبو الفضل هبة الله بن عبد القاهر بن الموصول	أموال	٤٩١ هـ	ابن العديم، ص ١٣٨
معين الدين أنر صاحب دمشق (ت ٥٤٤ هـ)	أموال	٥٣٣-٥٣٤هـ	أسامة بن منقذ، ص ٨١-٨٢
عز الدين أبو العساكر سلطان	أموال	٥٣٣ -٥٣٤هـ	أسامة بن منقذ، ص ٨١-٨٢
نصر بن منصور بن الحسين الحرانى	أموال وصدقات	(٤٨٤- ٥٥٣هـ)	سبط ابن الجوزى، ج٨، ص ٢٣٠
الوزير جمال الدين محمد بن على بن أبى منصور الأصفهانى	صدقات وأموال	ت ٥٥٩ هـ	ابن خلكان، وفيات، ج٥، ١٤٣
نور الدين محمود (ت ٥٦٩ هـ)	أوقاف وأموال	٥٥٢، ٥٥٤هـ	ابن جبير، ص ٣٩١
صلاح الدين الأيوبى	خراج بلبيس، صدقات وأموال	٥٦٤ حتى وفاته ٥٨٩ هـ	ابن الفرات، ج٤، ص ٢٣؛ أبو شامة، ج١، ص١٧٠
أبو منصور قايماز عبد الله الزينى الملقب مجاهد الدين الخادم	أوقاف متعددة	ت ٥٩٥ هـ	أبو شامة، ج١، ص ٢٧٠
القاضى عبد الرحيم على البيسانى	دار التمر	٥٧٤ هـ	أبوشامة، ج٢، ص٧؛ المقريزى، الخطط، ٢، ص ٧٨، ٧٩
أبو القاسم بن حمود المعروف بابن حجر (صقلية)	أموال وصدقات	٥٨٠ هـ	ابن جبير، ص ٤٣٥ - ٤٣٨
مظفر الدين كوكبورى (الملك المعظم) صاحب أربل	أوقاف وصدقات	ت ٦٣٠ هـ	ابن واصل، ج٥، ص٥٦؛ سبط ابن الجوزى، ج٨، ق٢، ٦٨٢
مسرور أحد خدام صلاح الدين	فندق خان مسرور	زمن صلاح الدين	ابن عبد الظاهر، الروضة، ص ٢٤-٢٥

ملحق رقم (٢)

دار التمـــــر

... وهذه الدار وقفها القاضى عبد الرحيم بن على البيسانى على فكاك الأسرى من المسلمين ببلاد الفرنج. قال محيى الدين بن عبد الظاهر فى كتابه الدر النظيم فى أوقاف القاضى الفاضل عبد الرحيم ومن جملة بنائه دار التمر بمصر المحروسة ولها دخل عظيم يجمع ويشترى به الأسرى من بلاد الفرنج وذلك مستمر إلى هذا الوقت وفى كل وقت يحضر بالأسارى فيلبسون ويطوفون ويدعون له وسمعتهم مراراً يقولون يا الله يا رحمن يا رحيم ارحم القاضى الفاضل عبد الرحيم.

وقال القاضى جمال الدين بن شيث كان للقاضى الفاضل ربع عظيم يؤجره بمبلغ كبير فلما عزم على الحج ركب ومر به ووقف عليه وقال اللهم أنك تعلم أن هذا الخان ليس شىء أحب إلىّ منه أو قال أعز علىّ منه اللهم فاشهد أنى وقفته على فكاك الأسرى من بلاد الفرنج وقال ابن المتوّج ومن جملة الأوقاف الوقف الفاضلى وهو الدار المشهورة بصناعة التمر الوقف على فكاك الأسرى من يد العدو ...(١).

(١) المقريزى، الخطط، ٢، ص ٧٩.